الهندسة المعمارية المملوكية

الدكتور ميشيلماينكه
ترجمة : منى المؤذن

يقدم هذا البحث عملية تقييم للهندسة المعمارية المملوكية ، والعلاقة المتبادلة بينها وبين الهندسة المعمارية التقليدية المحلية في المناطق التي امتد عليها النفوذ المملوكي .

وصلت الهندسة المعمارية في العصور الاسلامية الوسطى الى أرقى مستوى من التطور في العهد المملوكي حيث نجد الاهتمام بالمادة إلى جانب بعد نظر في تغيير أسلوب وشكل العمارة المحلية .

وبالمقارنة مع الهندسة المعمارية في مناطق أخرى من العالم نجد تشكيلة من المباني تعود بالكامل إلى العصر المملوكي مع شكرنا لهم لوجود لوحات موثّقة ومعاصرة لإقامة الأثر .

ومن خلال مسح الأماكن الأولى التي قامت عليها الدولة المملوكية نجد مبان أثرية عديدة ومختلفة تقدر بأكثر من ٥٠٠ وحدة أنشأت مابين عام ٦٤٨ هـ الموافق ١٢٥٠ م و ٩٢٣ هـ الموافق ١٥١٧ م .

إن التوزع الجغرافي للمباني يعطي دلالة واضحة عن العلاقة بين المكان والطابع التقليدي للهندسة ، ففي القاهرة عاصمة المماليك وحيث مركز القوى ، نجد ٢١٧ أثراً باقٍ من تلك الفترة التي تتجلى فيها أكبر وأعظم روائع الهندسة المعمارية المملوكية .

المركز الثاني الهام الذي تم دراسته ومسحه القدس حيث نرى ٦٢ مبناً مملوكياً يهيمن على مدى واسع من المدينة القديمة ويشهد على أهميتها كإحدى أهم مراكز هذا الإقليم من السلطنة .

ومن المدن الأخرى ، هناك اثنتان ـ تعتبران مركزان هامان لإقامة الحكام السوريين ـ هما دمشق وحلب . ففي دمشق ٥٠ وحدة أثرية وفي حلب ٤٩ وحدة . يليهما كمركز سكني لحكام المنطقة طرابلس حيث نجد ٢٥ مبنىً . أما مدن سوريا الطبيعية الأقل أهمية هناك حصن الأكراد فيه ٧ وحدات ، حماه والخليل في كل منهما ٦ وحدات في صفد ٤ وحدات ، يضاف إلى ذلك عدد لا يحصى من المباني المستقلة والمنتشرة في مناطق تمتد من مصر وحتى تركيا تشهد على إقامة المماليك سابقاً .

مجموعة المباني الباقية الى الآن مجموعة غنية ، وربما كان إقامتها يعتبر واجباً من واجبات الدولة يدل على امتداد الإمبراطورية ، وهي بالتالي شاهد على صنعة فنية استعملت حصراً في كل المباني المملوكية بالإضافة إلى جمالية مترفة .

هذه الآثار المملوكية الزاخرة بالحياة والجمال

نشر هذا البحث باللغة الانكليزية في مجلة أخبار الشام الصادرة عن المعهد الأثري الالماني بدمشق المجلد الثاني ١٩٨٥

شهد بها كبار الكتاب والأدباء حيث نجد في كتبهم وصفاً طبغرافياً مفصلاً للمدن ، يعتبر دليل شامل للحركة العمرانية في تلك الفترة .

يركز الوصف على ثلاثة مراكز أساسية في الإمبراطورية . القاهرة وخاصة في خطط المقريزي ، دمشق وصف النعيمي وابن طولون ، حلب وصف ابن شحنه وابن العجمي هذا بالإضافة إلى وصف طبغرافي مفصل كرّس لأربعة مراكز إقليمية وهي : العليمي واحد من الذين قدموا لنا معلومات عن القدس والخليل ، الفاسي والنهراوني وصفا مكة ، السمهودي تحدث عن المدينة المنورة .

أما أهم المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ المملوكي : ابن شداد ، الجزائري . ابن الدويدري ، ابن كثير ، المقريزي ، ابن تغريبردي - ابن طولون . ابن إياس .

ومن أهم من كتب سير الأعلام ، ابن الشقاعي ، الصفدي ، ابن تغريبردي . ابن حجر ، العسقلاني ، السخاوي ، هذا بالإضافة الى احتواء كتبهم على معلومات متناثرة عن الحركة المعمارية في تلك الفترة .

ما ذكره هؤلاء العلماء يعطينا فكرة واضحة عن العلاقة بين المعلومات الواردة والمعطيات المرئية أمامنا .

القاهرة بموقعها الهام ذكرت في ٩١٠ وثيقة مكتوبة تتحدث عن المشاريع العمرانية فيها - فهي بذلك تتحدى النسيان .

ويفوق القدس أهمية العاصمتان السوريتان دمشق وحلب حيث تأتي دمشق في الدرجة الثانية فقد ذكرت مبانيها في ٢٥٣ وثيقة أما حلب فهناك ٢٣٢ وثيقة .

أما المراكز الحكومية للمقاطعات الأقل أهمية من سابقتها هناك طرابلس حيث نجد ٣٩ نصاً يسلط الضوء على مبانيها الاسكندرية ذكرت في ٣٢ نصاً ، غزة وحماه ذكرت في ٢٥ نصاً .

ومن المدن ذات الأهمية الدينية ولكنها جاءت في المركز الثاني من حيث عرضها في المراجع الخليل وقد ذكرت في ٢٤ نصاً .

وهناك ست مدن أخرى في الإمبراطورية لكل منها أكثر من ١٠ وثائق ذكرت فيها : بعلبك ٢٢ . رام الله ١٥ . صفد ١٥ ، حمص ١٤ ، حصن الأكراد ١٤ ، نابلس ١٢ .

وقد عرفت الحركة المعمارية من خلال نصوص ذكرت مدن أخرى متناثرة على امتداد الإمبراطورية .

وللمصادر الكتابية أهميتها فهي تسلط الضوء على ٢٢٨٠ مبناً مملوكياً بالإضافة إلى ٥٠٦ مبناً قائم حتى الآن ، وعلى الأقل أكثر من ٩٦٠ مبناً كان موجوداً في الفترة المملوكية ، وهناك ٨١٤ مبناً أعيد إصلاحه وتجديده ، وفوق هذا تبقى هذه الأرقام تمهيدية ويمكن أن تزاد أو تعدل ، فعلى الأقل الربع أو الثلث من المباني المملوكية قد تم مسحه وإنقاذه . وإن كتابة المؤرخين حول هذا المبنى أو ذاك دليل على اختيار للموجودات ذات الأهمية الأكبر ، أما وجود كتابه على المبنى نفسه فهذا شاهد على الأهمية العظيمة لهذا الأثر .

إن الدراسة التمهيدية السابقة تظهر حالة العمارة في ذلك العصر ومن السهولة متابعة تبدلات

أسلوب الهندسة في ثلاث مدن أساسية من السلطنة المملوكية وهي القاهرة ودمشق وحلب حيث نرى حركة بناء موثقة تدل على بقاء واستمرارية الهندسة المعمارية التقليدية في كامل العهد المملوكي ، هذه المدن كان لها أسلوب في الهندسة مستقل ومتطور وقد استمرت (الورش) المعامل الحرفية الصغيرة في تقديم نماذج تقليدية محلية خاصة .

القاهرة : المنبع الأساسي للأسلوب المملوكي المحلي تثير الإعجاب وتذكرنا بالعهد الفاطمي ، الهندسة المعمارية الفاطمية تتجلى بوضوح متميز في جامع الأقمر حيث نجد واجهة محكمة الاتقان فهي مؤلفة من عدة أقواس وهذا النموذج أخذ يظهر في كل مكان في العهد المملوكي . أما الوضع الخارجي للمبنى فإنه يذكرنا بميزات الهندسة في العاصمة الفاطمية أو يدخل ضمن ذلك المآذن التي تظهر بأشكال لاتحصى وإذا عدنا الى المآذن الفاطمية (مثال : جامع الحاكم) ، نلمس بوضوح النماذج الأولى فالمآذن في القاهرة تقع غالباً قرب الشارع فهي مرئية بوضوح بينما قباب المصلى داخلية ، وعلى العموم فإن القباب والمآذن غنية بالزخارف .

في منطقة سوريا نستلهم هندسة الجوامع من الجامع الأموي بدمشق فكل الجوامع التي بنيت بعده تعتبر نموذجاً متأثراً بالصورة الأولية والأساسية لهذا الجامع حيث الأقواس حول الساحة الأساسية ورواق القبلة كمركز أساسي والساحة التقليدية المفتوحة ومآذن الجامع التي تكون غالباً متماثلة .

ثم ظهرت طريقة التقليم العرضي في واجهات المداخل وهذه النوعية من التزيين تطور محلي يعود إلى نهاية العهد الأيوبي ، ثم أخذت تظهر في المباني المملوكية .

إن حلب مثل دمشق من حيث الهندسة المعمارية لمدخل المبنى لكن التباين بين العاصمة السورية والمباني الحلبية يظهر في امتداد العقود في جميع الغرف الداخلية هذه العقود غالباً دائرية أما القباب فهي بشكل التفاف بارز أو مقرنصات متدلية . وهناك اختلافات أخرى نفذت على الحجر بإتقان عال المستوى من حيث الصنعة والتقنية .

ظهرت نماذج العقود المتقاطعة في العهد المملوكي في تصميم المداخل . الاستخدام الأول للقوس الكبير في الجامع الرئيسي في حلب الذي اعيد بناؤه سنة (٦٨٤ هـ الموافق ١٢٨٥م) وهذه العقود المتقاطعة تذكرنا بالملامح الأساسية التي تميز العمارة المحلية .

والخاصة الأخرى التي تميز الهندسة المعمارية في حلب تطور الصنعة الأيوبية المتأخرة في استخدام الأحجار المتعددة الألوان مع رسوم هندسية متشابكة نفذت في المحاريب بالاضافة الى عناصر هندسية واضحة استعملت في المباني المملوكية المختلفة .

وعلى الرغم من أن الهندسة المعمارية المملوكية بنيت على قاعدة من الهندسة التقليدية في القاهرة ودمشق وحلب ، فإن هناك عملية تطور وتبادل مستمرة تتجلى في المخططات المتشابهة وانتقال الفنانين لتشكيل معظم المباني ، وهكذا ظل الاتصال مستمراً بين الهندسة المعمارية التقليدية السورية وتلك التي في العاصمة (القاهرة) .

التطور السوري في البناء والهندسة كان في المساحة فقد غدت أكثر اعتدالاً منها في مصر ، وتغلبت العمارة الحلبية التقليدية الراقية على دمشق وجميع المراكز المملوكية الأقل أهمية ، وظهرت مهارة البناء الحلبي بشكل واضح في المباني الموجودة بطرابلس ، هذه المدينة التي عادت الى الظهور بزمن السلطان المنصور قلاوون بعد هزيمة الصليبيين . وقد احتفل بإنشاء جامع الجمعة فيها عام ٦٩٣ هـ الموافق ١٢٩٣ م . هذا الجامع يماثل الجامع الكبير في حلب ، حيث العقد القصير عند المدخل . أما البناء فهو حلبي الطراز حيث نجد الأحجار الملونة والرسوم الهندسية المنسقة وهذا نراه عادة في مباني حلب التقليدية القديمة . وأصبح تأثير مدرسة حلب واضحاً في المقاطعات التابعة لها حيث الملامح نفسها في العقود والأحجار الملونة والمزخرفة بأشكال هندسية مثال ذلك الجامع المقام في الخليل والذي ألحق بالحرم من قبل الأمير سنجار الجايلي مابين عام ٧١٨ - ٧٢٠ هـ = ١٣١٨ - ١٣٢٠ م فهو يتبع في تصميمه وزخرفته النماذج في حلب .

وكذلك المبنى المملوكي الأول في حماه وهو جامع أبو الفداء[1] الذي بنى عام ٧٢٧ هـ الموافق ١٣٢٦ - ١٣٢٧ م تظهر لنا تأثير المدرسة الحلبية فيه بشكل واضح ، وحتى في القدس حيث يمتد نشاط الحركة المعمارية فإننا نجد الصنعة الفنية من فنانين ارتحلوا من حلب في مباني تعود للعهد الأيوبي . ويتجلى أرقى مستوى فني في الآثار المعمارية في مدرسة تنكز التي تم بناؤها سنة ٧٢٩ هـ الموافق ١٣٢٨ - ١٣٢٩ م فهي تعطي فكرة مناسبة لفن العمارة في تلك المدينة .

وهذا لايعني تغلب المدرسة الحلبية ، فللمدرسة الدمشقية بعض الاختلافات الذي بدأ ينتقل الى مراكز أخرى في الولايات المملوكية ، فجامع رأس العين في بعلبك يعود تاريخه الى الناصر محمد ، نجد تأثير المدرسة التقليدية الدمشقية عليه .

وبشكل عام فإن المدرستين السوريتين تعتبران استمراراً للمخططات والمواصفات الفنية المحلية القديمة ، وبالمقارنة مع القاهرة فإن ملامح وصفات جديدة أخذت تظهر في المخططات السلطانية مع استمرار تبني القديم وهنا نجد الجامع الهام الذي أمر بإقامته الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ الموافق ١٢٦٧ م ، وقد ذكر ابن شداد بأن هذا الجامع نموذج جاء بعد جامع عمر بن العاص في الفسطاط والذي يعود تاريخه الى الأيام الأولى للمسلمين في مصر وإن التأثير في القديم ظهر في مباني أقدم في العهد المملوكي مثال ذلك مبنى ضريح للإمام الشافعي الذي أقيم في العهد الأيوبي .

إن حب العودة إلى القديم يُظهر بشكل واضح الغرض من استمرار روح الأعمال السابقة التي تم إنجازها في العهد المملوكي وقد كان من أهداف الولاة المماليك إظهار أنفسهم كورثة حقيقيين للحكم ونتيجة لذلك ظهرت جوامع لها قبة ومقصورة بالإضافة الى الأقسام الرئيسة للجامع .

ومن الأمثلة على اهتمام المماليك بالمباني القديمة الهامة ترميم قبة الصخرة في القدس ، هذا

(١) جامع أبو الفداء ويعرف أيضاً بجامع الجمعة .

الترميم الذي جاء فوق إضافات وتحسينات تعود إلى العهد الأيوبي ، وهذا يوضح دعوى المماليك بأنهم ورثة مجد السلطة الأيوبية ، وقد تم ذلك في عام ٦٨٣ هـ الموافق ١٢٨٤ م في عهد السلطان المنصور قلاوون .

أما النطاق الرخامي في المداخل فإنه يعود الى النماذج التي ظهرت في العصر الأموي وهذا يدل على استمرار التأثر بالهندسة الاسلامية الأولى التي تجلت في العصر الأموي ، ومنذ ذلك الوقت والتقاليد المحلية تظهر في المباني بأشكال غير مباشرة .

ومن الملامح الهندسية المعمارية في تلك الفترة استعمال الفسيفساء الرخامية على شكل نطاقات استخدمت لأول مرة في القاهرة وهذا يدعونا للعودة الى الوراء وللنماذج الأولى ، ولا نكون محصورين في الفترة التي تعود الى العهد المملوكي لأنه حتى وقت متأخر كانت النماذج الهندسية المملوكية تفرض علينا أن نعود إلى تلك الرسوم والأشكال القديمة ، إن مدرسة السلطان المنصور قلاوون بهندستها لايوان القبلة اقتبست من المدرسة التي أوجدها السلطان الظاهر برقوق عام ٧٨٦ هـ الموافق ١٣٨٤ م وظهر الاقتباس في الاثنتين في مظاهر العظمة والفخامة والاستمرار بها من الماضي الى الحاضر .

إن رغبة حكام السلطنة لايجاد وملامح وصفات هندسية متطورة من خارج مصر دفعهم الى استمالة الفنانين وجذبهم من المقاطعات الأخرى في السلطنة وهذا كان سبباً في إضافة الكثير من الملامح الفنية على المباني التي اقيمت في العاصمة المملوكية وقد انصبت معظم الجهود في إظهار التقاليد المعمارية السورية ومن الآثار التي تدل على ذلك جامع السلطان الظاهر بيبرس فقد أدخل الفنانون المعماريون من دمشق وحلب لأول مرة طريقة الشبك المجدول والملون .

وفي احدى الحالات المثيرة للاعجاب هناك توقيع يدل على ارتباطه بسوريا وهو على بوابة قصر الأمير كاصون الناصري المؤرخ ٧٣٨ هـ الموافق ١٣٣٧ - ١٣٣٨م وقد تميز هذا القصر بالعقود المقرنصة المحكمة الاتقان . أما التوقيع فهو من قبل الفنان محمد بن أحمد زاغليش الشامي والعقود المقرنصة في هذا القصر تشبه تلك التي عرفت في بلاد الشام وقد ظهرت في مدرسة اسماعيل سلامي في القدس ، وهذا يدل على وجود صفات متميزة في بلاد الشام في تزيين المباني .

إذا تابعنا الأعمال التي أتت بعد ذلك في القاهرة نجد مدرسة السلطان الناصر حسن التي أنشأت خلال الأعوام ٧٥٧ هـ الموافق ١٣٥٦ م - ٧٦٠ هـ الموافق ١٣٥٩ م في هذه الفترة من العصر المملوكي حيث كانت الحركة المعمارية ناشطة ، كتب الظاهري بأن الولاة استدعوا المهندسين المعماريين من كل أنحاء العالم الإسلامي وقد اجيبت دعوتهم ليس فقط من قبل الفنانين في سوريا ولكن من قبل الفنانين الايرانيين والعراقيين أيضاً حيث نجد تأثيرهم في المخططات والتزيينات في المباني الأثرية .

أما في المقاطعات الأخرى فإن تغيرات العمل أخذت منحيين ، ففي الاتجاه الأول هناك جهود مبذولة كي تتماشى المباني المقامة مع الهندسة المعمارية الراقية في العاصمة . لذا فقد استخدم الولاة في بلاد الشام معلمي الحرف الذين عملوا في

القاهرة لاقامة مبانيهم الخاصة ، ففي أواخر ١٣٢٠م وحتى أوائل ١٣٣٠ م تقريباً جعل والي دمشق تنكز جميع المعامل الحرفية الصغيرة (الورش) تعمل بشكل كامل لتقديم نماذج تشبه في طرازها تلك التي في القاهرة ، فظهرت المباني المختلفة في دمشق والقدس والخليل ، وهكذا فقد اقيمت مبانٍ في سوريا من قبل عمال أرسلوا مباشرة من القاهرة وعملوا لفترة في وضع مفردات عمرانية مماثلة لتلك التي وجدت في القاهرة ، مثال ذلك مدرسة السلطان الأشرف قاتيباي في القدس انتهى العمل بها عام ٨٨٧ هـ الموافق ١٤٨٢ م ، هذه المعامل الحرفية (الورش) التي عملت لفترة قصيرة في سوريا تعطي وحدة تقريبية لنماذج المباني في تلك الفترة ، بالإضافة إلى ذلك عندما يعمل الفنانون لفترة طويلة في القاهرة ثم يعودون الى موطنهم الأصلي نجد الملامح الأساسية في الزخرفة والتزيين منسجمة بشكل ناجح في عدة مناطق ، أما الاتجاه الثاني فإنه يعكس فترة ركود للحركة المعمارية في العاصمة وفي مناطق أخرى من العالم نتيجة لهذا الانتقال وهذه التبدلات تبدو بشكل واضح في واجهة المبنى والممرات وصفاتها تتجلى حتى اليوم في سوريا بحالات خاصة مثال ذلك في دمشق مدرسة لصاحبها أفريدون العجمي يعود تاريخها الى ٧٤٤ هـ الموافق ١٣٤٣ - ١٣٤٤ م . أو في مكتب السلطان الناصر حسن المؤرخ ٧٦٢ هـ الموافق ١٣٦١ م أما التي وجدت في عام ٨٢٤ هـ الموافق ١٤٢١ م فهي مدرسة الوالي جقمق الرهونشاوي .

وفي العقد الأخير من القرن الرابع عشر أخذ المحراب يظهر بشكل عادي وبسيط مثال ذلك مدرسة علي الجبهاني الاسعردي في القدس المقامة عام ٧٧٠ الموافق ١٣٦٨ م .

وفيما بعد في حلب أخذت المباني تظهر بتشكيلات منهجية جديدة ، حيث تبنى المهندسون الحلبيون نوعية لطيفة ومهذبة من العمارة لتلك التي وجدت في القاهرة .

وكان التأثر بالهندسة المعمارية المملوكية يتناسب مع بعد هذا الإقليم أو قربه من السلطنة ففي تركيا على سبيل المثال الجامع الرئيسي في سيلكوك الذي بني لإسباي من سلالة ايدين في عام ٧٧٦ هـ الموافق ١٣٧٥ م هناك توقيع لمهندس من دمشق اسمه علي بن مشايميش الدمشقي ، ويتبع هذا الجامع الطراز الدمشقي في تصميمه وزخرفته ويعتبر الحد الفاصل بين الهندسة المملوكية والهندسة العثمانية .

أما في تركستان فقد أقام الأمير جوريا الشهير في سمرقند مبنىً ذو طابع هندسي تيموري وذلك في عام ٨٠٦ هـ الموافق ١٤٠٣ - ١٤٠٤ م ولكنه تبنى نموذج من القباب التي لا مثيل لها إلا في التربة السلطانية التي تعود الى منتصب القرن الرابع عشر في القاهرة .

هذان المثالان السابقان يشهدان على امتداد الهندسة المعمارية المملوكية التي تقوم على قاعدة من التقاليد المحلية في البناء ، أدى هذا بالتالي لوجود نماذج متنوعة لامثيل لها سابقاً من حيث الهندسة والزخرفة .